يسار عبد الرحمن

مقتل السيدة ثُريَّا

للحب خناجرُ ثائرة

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON * CAMBRIDGE * NEW YORK * SHARJAH

جمال

ولادة الحُب لحظة تجلّي الموت المؤجل

كنتُ واقعيًّا أكثر ممَّا أتخيَّل، وحَكمت، لا مستقبل سيضيء قريبًا، أتخيَّل لو أني سأعمِّر طويلًا لألَّفتُ القصص والروايات، لكنِّي لا أجيد التأليف، بعض القصص المروية تكون جميلةً لأنَّ فيها مبالغة، بعض الرعشات الحبرية تكون كنجمٍ لا يزول ضوءه، فهي خالدة خلود الزمن، لكن وجود الموسيقى مختلف، إنَّها تَعبر بي وترحل، ثم تعود وتسلمني إلى ليل طويل مؤثث بالكلمات أقايضه بالنوم، فتبقى الكلمات في خلدي متشرنقة ولا سماء لها تحلِّق فيها قريبًا.

كنتُ مع التبغِ رديفًا يدخنني وأدخنه، مُشرعة أيام حياتي على أحداث بلا عناوين، ومشرعة على فكرة الخوف بمراحل، وذاكرة الموسيقى داخل رأسي تعزفُ أكثر من إيقاع، ولمَّا أنظر الى سِني طفولتي الأولى أرى الفرح القديم بِكرًا، لكنِّي أمسك طرف الخيط حتى لا أتحول وأكون ملتاعًا وتائهًا في محيط الزمن، موجٌ يردفني إلى موج بلا مرسى ولا شاطئ، والنجاة بخيالي أراها وقد تشظَّت، وعشق أبحثُ عنه فلا أدركتهُ ولا هو أدركني، ومواعيد مسائية خريفية لا أدري كيف بدأَت، وكيف ستنتهي، حَافظت على هويتها "مواعيد".

كبرتُ سريعًا، تتوالى السنون ملتهبةً لا شيء يوقفها، والرهبة الملعونة تكبر معي يومًا إثرَ يوم، شهرًا بعدَ شهر، وعقدًا يتلوه عقد، أعلم أني أحبُّ الحياة، فهل هي تحبني بدورها؟

أفكِّر كذلك، قلتُ لنفسي: هذي المجنونة فيها عصبٌ مجنون يدفعني دفعًا كي أفقد حواسي وأرحل لأعلى بضع سويعات ومِن ثمَّ أعود، ثم أدرك أنَّ هناك فارقًا، قلتُ أحدِّثها، لكنَّها أجَّلَتِ الحديث ليومٍ آخر.. أقصدُ نفسي.

يودِّعني صيفٌ قديم، ويستقبلني خريفٌ جديد، وأنا أكبر، بلغتُ من السنين إحدى وعشرين، حسبي أني عشتُ طويلًا، إنَّها التجارب، تلك اللغة العملية، إنَّها بلا كلمات لكنها مزدحمة بالانفعالات، ومزدحمة بتبدل العواطف، مشاعر الصباح حتمًا تتبدل عن مشاعر المساء، ومشاعر الليل حتمًا تتبدل عن مشاعر النهار وضوئه.

قلتُ لها في أحد اللقاءات الأولى قبل شهور: "لا ينبغي أن يحدث ما سيحدث، كيف نستسلم أنا وأنتِ هكذا ببساطة؟" قلتُ لها الكثير، مزيدًا مِن الغث والسمين، حتى تبدَّلَتِ الكلمات المنطوقة إلى دموع، هل يجهل أحد معنى الدموع؟ هل يجهل أحد كيف تُشَلُّ الحواس وتنخرس لتنوب الدموع عن الحواس كل الحواس؟ يمكنكِ هذا، إنها التقلُّبات وهي مقبولة بين الإحساس بالأمن والسلام، ثم الإحساس بغتةً بالخوف، تقلبات غير متساوية زمنيًّا أيضًا، ثم يتكرر الخوف ثم السلام، والإحساس بهِ يتآكل، ثم يعود الخوف مِن حيث لا ندري.

أتذكَّر جزءًا من كلامي في حديثي معها قبل عام: "لا ينبغي أن يحدث ما سيحدث، إمَّا أن نستسلم معًا أو نقاتلَ معًا، وأنا اخترتُ القِتال"، ثم فاض نهر الدموع.

توقَّفتُ بذاكرتي هناك، كان هذا الحديث في أحد اللقاءات على مقعدٍ مستطيل، وضعتُ قُربه أكواب قهوة مِن الورق المقوى، والشجرة التي تتعرَّى شتاءً، والرصيف الواسع، وظلال المارة الشاحبة بمحاذاتنا، والرعشة الأخيرة التي استفحلَت في ساعدي الأيمن، كان اعترافها المذهل الذي وسَّع الهوَّة، وجعل الممكن أشدَّ مِن المستحيل، فأجبرني بالعودة حتَّى أتمالك بأسًى وأحكي الحكايةَ من أولها.

الدموع.. الدموع.. الدموع.. المسافات الفاصلة، ولحظة شاعرية عميقة مصحوبة بنقراتٍ موسيقية واصلة مِن بيانو لا أدري مصدرها بالضبط، ثمَّ صرخ صوتٌ علوي: "سأعود، سأعود، أنا سأعود، سأملأ المرج ضربًا من رعدٍ وبروق، كأنِّي سأعود بعد رحيل روحي للسماء"، وتلاشى كل صوت، طاف اللون الأبيض بلا حواس تُذْكَر لِتسجَّل.

"يعجُّ بي ليلٌ هو ليل عشاقٍ بحت" قلتُ لها، ولَم أستمع الى جواب، ولَم أدرِ لمَ قلتُ ما قلت؟ كيف يتفق القول مع ولولة الإحساس الذي يصرخ قادمًا صوته مِن الأعماق؟ آهٍ كم مضى ما مضى بسرعة!

بيانو.. بيانو.. بيانو..

بدأَت حكايتنا مع بداية الخريف، عشقتُها والخريف، عرفتُها وعرفتها على أنها إحدى سمات بدء هذا الفصل وتتمَّة هذا العُمر، أعرف أنِّي سأحيا شتاءً لا مثيل لهُ، فإذا تأخَّرت عن استهلال الخريف فسأخسر جوائز المطر السرية، كيف سأمضي دون أن أقول عن جوائز المطر شتاءً إنَّها هبة الله ومنحةٌ منهُ بلا ثمن ولا سداد؟!

أذكرُ أنَّي قلتُ لها في اللقاءات الأولى: "لا ينبغي حدوث ما حدث، لكنه وقع هكذا ببساطة، بإرادة الذين سعَوا ليحصل دون استشارة، بلا أيِّ تردد".

إذن لا جواب واضح بعد اليوم، لا أحد يستحق إهراق مشاعرنا لأجله بالمجان، لكني كثيرًا ما همستُ في أذنها الصغيرة: "الحب لا يعني دومًا التضحية".

كل لقاء كنتُ أسرُّ في أذنها الصغيرة يرتفعُ حاجباها دهشة، وتوحي لي بعينيها أنَّها لَم تدرك المعنى بعد، ينكمشُ كتفاها كأنَّها تعرَّضَت لحالة تقلُّص مباغتة لتصير بحجم زهرة جرفها سيل ما بعد المطر، ثم أُكمِل قائلًا: "الحب يعني الموت".

ساعة اللقاء صعبة، مفخخة بالوجل والتلفت، إنها حتمية لكنها مسروقة من الزمن المعتم فتكون مضيئة، ساعة اللقاء سرية ومحددة، تسبق الغروب تمامًا حين يبدأ قرص الشمس بالذبول والتراخي، ويرشح عن ذبوله، لونٌ يميلُ بحمرته الباهتة وكأنه يعلن عن الحد الفاصل بين نهاية النور وبدء الظلام، وبين الذي نراه ولا نراه، وبيني وبينها بعد حديث كله مناجاة ووجل، وخوفٌ قد يباغتنا ويأتينا من حيث لا ندري ساقطًا من علوٍّ أو صاعدًا من باطن الأرض، ويصدع ما بقي لنا من أرض نقفُ عليها بزعمِ أننا ثابتان.

"أنا هنا، ما زلتُ حيًّا، لَم أُسقِط الراية بعد، الراية التي ثقبَتها رياح العواصف، ومزَّقَتها ريحُ المفاجآت العقيمة".

صرختُ أثناء نومي، واكتشفتُ أنِيّ كنتُ أهذي، وحتى أحلِّل الأمر بطريقةٍ علمية نهضتُ مِن فراشي، رسمتُ كل الخطوط التي شاهدتُها في كابوسي، ولمَّا جمعتُ بعضها إلى بعضٍ خطًّا بعد خط ظهر لي شكلٌ لا هو تجريدي ولا انطباعي، شكلٌ متعرّج ومتداخل، خطوط متباينة غير متساوية الانحناءات، فوضوية، ورأيتُ نقطتَين وسط الشكل المرسوم نقلًا عن ذاكرتي، عرفتُ أنَّ إحدى هاتين النقطتين كان أنا، أمَّا الأخرى لَم أعرف مَن تمثِّل، افترضتُ أنَّ هذه النقطة هي، افترضتُ دون أي منطق بالضبط كما همس لي تفكيري.

كنتُ مع التبغِ رديفًا متماثلًا في الاحتراق، مهملًا بعد انطفائه، لمَّا أشعلت سيجارتي الأولى نسيتُ كم كان عمري، فالطفولة لَم تزَل أمامي ماثلة، لكن تبغها يشتعل إلى الآن كلطخات طلاءٍ مِن فرشاة، إنها مسجلة في الذاكرةِ المخصصة لضبط التواريخ بناءً على أحداثٍ متقاربة أحدها مؤكد.

بعد عبور الطفولةِ لَم يعد التقارب في التواريخ يُجدِي نفعًا، تزاحمَتِ الصور الملونة في الذاكرة، كانت الصور القوية بألوانها تحلُّ محلَّ الصور الباهتة، والفارق نهش التبغ صدري، إنه الفارق الثابت وإحساس ما بعد الندم يساورني، أنا في صورةٍ متخيلة أشبه برؤيةٍ صالحة.

سمعتُ صوتًا قادمًا مِن نقطةٍ مجهولة ومعتمة: "ستظلُّ أسير شهواتك".

لو كان الحب شهوة لبدا الفرق واضحًا، لزالت هذه الشهوة مع مرور السنوات، وقد أخبرتُها في أحد اللقاءات بهذه الفكرة، فانكمشَت وانكمشَت حتى صارت بحجم زهرة جرفها سيل صغير تشكَّل بعد الهطول، وذهب إلى هناك، تصوَّرتُ أنَّه نقلها إلى الجنة، شيء مِن هذا القبيل.

عرفتُ بعد انكماشها أنَّ الحب ليس شهوة، لا.. إنه أرقى مِن هذا، وحتى أؤكِّد قناعتي أشعلتُ سيجارتي، ونفثتُ دخانها فوق رأسي، فتمدَّدَ خيط الدخان بتباطؤ، وارتفع لأعلى ثم تلاشى.

"لا ينبغي أن يحدث ما حدث" كدتُ أصرخ في وجهها وامتنعت، هذه المرة لَم تنكمش، بل ذرفَت دموعها بسخاء، وحدَّقت بعيدًا، راحت تنشج، تنعي جوهر عاطفتنا معًا، أعرف أنِّي كنتُ قويًّا أمامها، لكن حُشَاشَتي مِن الداخل تذوب، فأنا لَم أبكِ أمامها أبدًا، كنتُ أستعين بالتبغ، سيجارة أشعلها عقب أخرى، طفحت المنفضة بأعقابها ورمادها المحترق إذا تكرَّر لقاؤنا في أحد مقاهي المدينة.

كنتُ أمامها قاسي الملامح صلبًا، ومِن المستحيل أن أنهار فأفقد عنان توازني وأبدأ في البكاء مثل ولدٍ صغير خطف أترابه قطعة الحلوى مِن يده، ولكن في بيتي.. في غرفتي المصابة جدرانها بالرطوبة.. ووحدي.. رحتُ أشهق مثل طفلٍ صغير، أشدُّ بأصابعي على أغطية السرير، أزفر حرارتي الزائدة من جوفي، يلوث لعابي الأغطية فأنام، وفي الصباح أرى قباب عيني منتفخة لكثرةِ ما بكيتُ، يتحوَّل مذاق فمي مُرًّا ولعابي مسمومًا، وشعري مهووش، ووجهي متكسر كلوح زجاج فرش الأرض شظايا ناعمة، عرفتُ أنَّ الحب ليس شهوة، هو أكبر من هذا وأجلُّ.

راح الشتاء يسلِّم عهدته للربيع، ولا تزال لقاءاتنا سرية سادرة ومستمرة، سقفها الخوف، وحوافها التلفُّت.

وفي أحد لقاءات الربيع المجهول، سألَتني ونبرة صوتها غارقة في راحةٍ مفاجِئة لكنَّها مؤقَّتة:

- هل يمكنك أن تتحدَّث عني؟

سألتُها:

- كيف؟

كرَّرَت سؤالها، ونبرة صوتها تؤكِّد مطلبها:

- حدِّثني عنِّي، أحبُّ حديثك عنِّي.

- في الوصف، هل أصفك مثلًا؟ أم في النفس عن روحك؟

سألتُها لأربكها، فهي أجمل مع الارتباك.

- ما تشاء، أحبُّ سماع صوتكَ يخبرني ما لا أعلم عن نفسي.

قالت وأغمضَت عينيها لثوانٍ وشبح ابتسامة يتجلَّى على شفتيها قبل أن يختفي.

ابتسمتُ لا أدري لِمَ ابتسمتُ، هل كنتُ أقصد إيمانها المطلق بي؟ أم لأنِّي سأصف ما ليس لي؟ أم لأنِّي سمحتُ لليأس أن يتسلل فصارت هي مع اليأس أجمل؟

هممتُ أن أخبرها أنتِ مسكينة بائسة، لكنِّي بدلتُ قصدَ الكلمات قبل أن تنطلق في الهواء راحلة لأذنيها.

لَم تكن تدري أنَّ حبَّها كالخوف تمامًا بلا نقص ولا زيادة، لَم تكن تدري أن حبها كسكين حادٍّ انزلقَ في كومةٍ مِن شرايييني، لَم تكن على علم أن حبي لها حوَّل قلبي لمضمار خيول تتسابق فيه نبضاته بسرعةٍ خارقة تجعل أنفاسي متسارعة متقطعة ولاهثة.

أجبتُها:

- سأخبركِ بمكامن قوَّتك، تلك التي تجهلين الوصول إليها حقًّا، وإذا وصلتِ إليها في يومٍ ما تزداد روحكِ بهاءً، وجمالكِ جمالًا، وتصدح المعازف بألحانٍ سماوية، ولا أقول وصفًا إنَّما قلتُ الحق.

قالت وبين حاجبيها تقطيبٌ ينمُّ عن استسلام:

- أتمنَّى حقًّا تصديق ما تقوله، لكنِّي أعرف أعماق الضعف في روحي أكثر مِن أيّ إنسانٍ آخر.

هكذا عقَّبَت ترشحُ كلماتها قنوطًا، توارى كل شيء خلف كل شيء في برهة، ثم انبرى الصمت يتكاثر على شفاهنا معًا.

كان الطقس مثلنا يتَّصف بالصمت، لا هطل للمطر، لا غروب صافٍ، رهاب غيمٍ صدفي يتقارب في الجهة الغربية مِن المدينة، وشحوب موسمي كسا واجهات المباني، وحتى الشجر، تجمَّد في مكانه كأنَّه نائمٌ قبل موعده.

نفَضَت رذاذ المطر الذي وشَّحَ ذيل معطفها المصنوع من الجوخ، وغادرت طاولة المقهى وهي تتأبَّط كتبها، يا لكتبها، يا لمشيتها، يا لطيفها الذاهب في الابتعاد ثم التصاغر إلى أن تتلاشى عن مرمى بصري!

تتلاشى معها كل الأضواء والأنفاس وحتى الرغبة في الكلام مع أحد، كانت مشيتها كالقصيدة بيتًا بيتًا، تمشي الهوينى، تترك بعد خطواتها أبياتَ شعر ترتفع إلى الهواء، لا أحد يقرؤها سِوَاي، كان طيفها خيالًا محمَّلًا بالمعجزات، وموسيقى مختلطة بين الحزن والفرح معًا، متداخلة وعصية على التفكيك.

كانت حلمًا عالمه الواقع، وكانت واقعًا عالمه الحلم، وكانت ما كانت من وجعٍ يتلبسني ليلًا، يضيق بسببهِ صدري، تنذرني نغزاته القوية، كأنَّ ارتجاج شراييني لم يعد يقوى على امتصاص الانعكاسات المتوقعة ولا الضربات الفجائية.

بعد أن ذهبَت كنتُ في المقهى وحدي، تلفَّتُّ حولي، كانت الطاولاتُ شبه فارغة، أجزمتُ أنَّها اللحظة المناسبة، تطامنتُ أسفل الطاولة، وألصقتُ رسالتي التي كتبتُها بلاصقٍ ورقي في الجهةِ الداخليةِ للطاولة.

استقمتُ.. عرفتُ أنَّ الحظَّ حالفَني، فلَم يشاهدني أحد ألصق الرسالة.

معها تحوَّل النوم إلى أرق، لَم يُجدِ في إنهائهِ أيُّ دواء، ووحدة تامة تغلفني، أبدأ صباحي ببضع لقيمات حتى أتمكن من التدخين، كنتُ أعوض انسداد شهيتي بشرب كثيرٍ من الماء وعند النوم، محاولات مكرَّرة أتخيَّل فيها نفسي نائمًا، لكنِّي يقظٌ يستفحل الأرق في أعصاب عيني، ثم أعيد الكرَّة وأقنع عقلي أني نائم، فأكتشف اشتداد أعصابي، ينحاز قلبي إليه، أنهض لأخلق علاجًا نافعًا، وأصرخ في طيَّات صدري أريد أن أنام، أمسك بكأسٍ زجاجية، وأقذف بها فتتهشَّم على السجادة.

أخيرًا يفلتُ لجام اصطباري، فتتدفق العبراتُ دافئة ومالحة، ويكتمل المشهد تراجيديًّا مع رنين الهاتف المحمول، وتكون هي، ثم تتحدث الدموع على طرفي المكالمة مكلَّلة بالشهيق والنحيب والحشرجات المكبوتة.

في الصباح أتخيَّل غير هذا المشهد الحزين، علَّها تأتي وتقترب لتكونَ ببساطة العاشقة المريدة، ببساطة قوانين الكون التي لا تزال ماثلة، علَّها تأتي لتكون هي، تأتي

واثقة، تفتحُ الباب ثم تغلقه، تُبدِّل ثيابها، تقترب.. تنظر في وجهي وتضحك بلا مبالغة، تضحك كأنَّها عرفَت أخيرًا الطريق إليَّ، فأتت غير عابئة بما سيكون، ذلك الذي يخيفنا وقوعه، لو أغلقَت الباب خلفها فلن يُسمَح لأحد بالمرور بَعدَها.

هل كان حبي لكِ لعنة؟ أسأل نفسي وأبدل ثيابي، هل كان حبك لعنة؟ أسأل نفسي وأتفحص تورُّم عينيَّ، وأدقِّق النظر في المرآة، ازدَادَتِ الشعيرات الدموية الحمراء تشعُّبًا، وحاجبايَ منكفئان، والتجاعيد على جانبَي وجهي عميقة، جلدي مترهِّل كأنه عجينة ممطوطة.

سأعدُّ نفسي لألقاكِ عصر هذا اليوم، كلَّما انقضَتِ الساعات، واقترب الموعد يحدث ارتباك في نبض قلبي، ثمَّ أمضي لألقاكِ، تصلينَ على الموعد، أتفحصُّ هيئتك وملابسك المتناسقة، كنزة صوفية غامقة اختبأ تحتها صدركِ، سروال من الكتان البارد لونه حليبي، تتأبَّطين حقيبتكِ السوداء وفي يدكِ كتاب، تبدو ملامحكِ ساكنة وملتبسة، تهمُّ عيناكِ لتبتسما، لكنَّهما لا تفعلان، تُؤثِران الجمود والفرار، أصافحكِ بموتٍ مؤجل لتصافحيني بنعيٍ أخرس دون كلمات، تجلسين في جواري، جوار المثوى المتنقل، وتهيمين في صمتٍ نَدِيٍّ كأنه انسلات قطرات ندى عن بتلات زهرة، تحدقين بي علَّكِ تقرئين عناوين نفسي الرئيسة، تفركين يديكِ كأن البرد نخر عظام صدرك، تتردَّد عيناكِ، تتلاحقان جيئة وذهابًا، تثبتان أخيرًا على شفتيَّ ثمَّ تسقطانِ سريعًا مبتعدتَيْن، تعاودانِ إبصار شاربي الأسود، تسافران في رحلةٍ طويلة من جديد في محيط عينيَّ، وتغوصان فيهما عميقًا، ولا تدركان شيئًا، السرابُ المستحيل يخدعكِ فيهما، والضوء المنعكس فيهما يختلط مع معاني عدَّة متناقضة، شيء من الأمل وما بقي هو اليأس، وشيء من فرح، والكثير الكثير من الحزن والقنوط.

- ألن تقول شيئًا؟

بدا صوتكِ غارقًا في حزنٍ رمادي ثقيل.

- كلام اليوم نفسه كلام الغد، وهو هو كلام الأمس وأول أمس، الكلام لن يأتي في هذه الظروف بمعنًى جديد.

لَم تعقِّب على ما قلتُ، هي تجهل أنَّ صمتها وحده علَّة، وإن كان كلامها حلوًا مقارنةً بصمتها الذي يجرحني، ويُعمِل السكين في قلبي.

كاشفتُها في أحد اللقاءات، وأخبرتُها أنَّ صمتها هو ضعفي، فكل إنسان لديه نقاط ضعف، لكني عرفتُ مؤخرًا أن الصمت من أقوى الأسلحة.

أخبرَتني فيما مضى أنَّها شديدة التعلق بصوتي، وقالت لي: "صوتك هذا الذي يأتي مِن حنجرتك ليس مفتعَلًا، هو على طبيعته النقية يفعلُ بي الأفاعيل".

أتذكَّر يومها أنَّها تجرَّأت ووضعَت أنامل يدها اليمنى على حنجرتي، ثم ابتسمَت وتابعَت تقول: هذه تفاحة آدم، إنها موجودة أيضًا، هنا يكمن ضعفي أيها العاشق.

سألَت برجاء:

- ألا تقول شيئًا؟

- عدنا مِن جديد؟ أجبتُها بجفاء وتابعت: يأتي الكلام وحده، نحتاج إلى قوة مضاعفة حتى نقول ما في أنفسنا في لحظات خسرانٍ كبير، إنّي أصمت لأستجمع قواي، أخشى أن أتعجَّل في الحديث، فيتحوَّل اتجاهه وأقصفكِ، وأنا أعلم أنكِ مثلي، يداكِ فارغتان وقلبكِ معلَّق مثل قلبي، كبندول ساعةٍ لا يعرف التوقُّف في الهواء.

فقالت غير مبالية بكلامي:

- هذا الصوت حين يلقي أبيات قصيدة عابرة غير موزونة يفصلني عن الجاذبية انفصالًا تامًّا، ولا أدري إلى أين يلقي بي؟ آخر مرة ألقَى بي في مكانٍ أبيض ناعم، وكأنه عالمٌ مصنوع من الريش أملس وناعم ولا يجرح، عالمٌ لا فصول فيه، سماؤه زرقاء داكنة الزرقة، وأقماره متلاصقة تتحرك بثباتٍ ضوئي مثير.

جعلني كلامها هائمًا وغارقًا ومتوحِّدًا مع عشقي لها، وهي لا تعلم أنني أفتعل الجفاء افتعالًا إذ اتَّخذتُ قراري في الموتِ نيابة عنها، أجل.. فلا يتعجَّب أحد، منذ الساعة الأولى التي عشقتُها فيها شعرتُ بقاتلي يطوف حولي، لكنِّي انحزتُ إلى عشقها، سكنتُ قارةً مترامية الأطراف في الخيال، وتحوَّل بكائي إلى ذرفٍ للدموع بلا ألَم، وزادت ساعات مكوثي مع الورق الأبيض، بل انطلقت إلى ملكوتٍ يختلف ومجهول، في تلك اللحظات الأولى انفلتَت عواطفي من عقالها وكأنَّها أفراس برِّية أطلقَت سيقانها للريح بلا عودة.

- قل كلامًا معادًا، إنِّي أعدُّ العُدة فلا أريد لثانية واحدة أن تنتهي وترحل ولا تمتلئ بك، ذلك أن سِنِي حياتي القادمة ليست محسوبة، منذ اليوم الأول لبدء فراقنا يتوقَّف عمري، ومِن اللحظة الأولى لابتعادنا عن بعضنا قسرًا تتوقَّف أيامي، حياتي ليست محسوبة أيضًا لا في أرض ولا أدري إن كانت ستسجَّل في السماء.

هل تدري أنَّ ما قالَته الآن سقط على روحي كماء نارٍ تحرق وتهتكُ، وتحيل القاع إلى رماد، لكنَّها مثلي تكابد ألمَ العشق بصبر وثبات، وطرَحت ما تبقى لها مِن حياة إن ثبت الفراق.

حين عشقتُها لَم أدرِ أنَّ عشقي لها استحالة، وأن قلبي تعلَّق بأنثى قادمة من كوكبٍ آخر أجهله، أو أنَّني قطفتُ قلب أنثى من الأغصان العالية، جزاءً لفعلتي ستقطع رأسي؛ لأني نظرت إلى ما هو مُحرَّم.

لم أدرِ إلَّا الآن أنَّني أحيا في عالمٍ لا يزال منقسمًا على نفسه إلى طبقات، أعمَتني الحقيقة، وخدعَني الوَهم أن الناس سواسية، وأن كل ما تعلمناه في المدارس كان محض خدعة، وأن ما درسناه في الجامعات يبقى نظريًّا مجرد نصوص ومساقات وكتب يغرِّد بها المحاضِرون صباح مساء، هم أول من يدرك حجم هذه الكذبة.

أعمتني الحقيقة وخدعني التوهم، وشربتني تحولات الفصول، مضغني توالي السنين، رغم هذا ها هي تجلس جواري، أشعر بها كأنها شبح، أحبَبتُها دون تلكُّؤ أو بطء أو خوف.

مِن هنا كانت الحكاية، قبل عامٍ خلا في بداية العام الدراسي الثاني في الجامعة، ولجتُ الكافتيريا لأشرب قهوة، وفي انتظار القهوة، التفتَت هي، رأيتُها، وقع بصري عليها.

راقت لي من النظرةِ الأولى، لا أدري لِمَ! كانت مثلي لا تعرفني قبل ذلكَ اليوم، ولا حتى شاهدَتني مِن قبل، سِرتُ نحوها، تأمَّلتُ شعرها المسترسل السبطَ الطويل يرتاح على كتفيها.

كانت جالسة أمامها كوب شاي مِن الورق المقوى يتصاعد بخاره، حقيبتها على الطاولة، غير عابئة لا بالكافتيريا ولا بالطلاب الذين شغلوها عن بكرة أبيها.

روائح متعددة تعبق في الهواء، وضجَّة عالية غلَّفَتِ الحيِّز المتباعد المؤطر بالنوافذ، كانت تلبسُ سروال جينز فضفاضًا وكنزة طويلة من الشيفون مِن النوع المعجن لونها أحمر فاقع.

كانت خيوط الشمس واهنة تنفذ بسلاسة تضيف لمسة من غموض، رأيتها تقلب ورق دوسيه بين يديها، لاحظَتني فوق رأسها تمامًا، ظلَّت يدها مرتفعة تمسك بالورق، كاد حذائي يلامس حذاءَها، ثم انحنَيت وكاد فمي يلامس فمها، وقلتُ بكلِّ جُرأة:

- أنتِ هي مَن أبحث عنها، أظنُّ أنَّني عاشق عذري، ولا تظنِّي كلامي الجريء تهوُّرًا، فأنا مهنتي الأولى شاعر، وهوايتي الأولى شاعر، ونهايتي الحتمية أيضًا شاعر، والشعراء وجهات قلوبهم لا تخطئ، وإن لَم تصدِّقي ألا فاعلمي أنَّني منذ الآن وحتى لقائي بحتفي لن أعشق أنثى أُخرَى سِوَاكِ.

ولَم أكن أعلم أنَّ لحظة ولادة حبي هي نفسها لحظةُ إعلان موتي الصَّامت، ولَم أكن أعلم أنَّ قاتلي كان يراني، كان قريبًا، كان يشاهدني وأنا أحدّقُ في عينيها، وأتحدثُّ إلى قلبها وروحها.

يحقُّ لي في نهاية عشقي المحكوم بالفراق أن أختار ساعة التوهان، والانجراف خلف خيالي كطفلٍ تعلَّق بثوبِ أُمِّه مخافةَ أن يضيع، لكنَّ أُمَّه المتعجلة في مشيتها جعلَته يتعثَّر وتنكسر ساقاه، وأما أنا بعد عام واحدٍ فقط من إعلان عشقي الكبير لها انكسر قلبي، كأنَّه قدَر على الشعراء ملازم، محتَّمٌ عليهم انكسار قلوبهم، ليملؤوا الفضاء قصائد شعرٍ تدمي القلوب.

بعد اعترافي الأول في الكافتيريا لَم ألتفت خلفي ومضيتُ، ربَّما كانت توطئة نارية، ربما نعتَتني بالجنون، ربما قالت عنِّي رجل ملبوس بأرواح مِن العالم الآخر.

في ذلك الزمن الذي كنتُ فيه قويًّا ألغيتُ الرهان على الوقت، ووضعتُ نصب عيني الرهان على قوة الكلمة.

مضى أسبوع على حادثة كافيتريا الجامعة، بحثتُ خلسة عنها، بمعنى أن أعثر عليها دون أن تلمحني، لكنَّها اختفَت مثلما تختفي النجوم في رابعة النهار كأنها جنِّية انكشفَت على الإنس فحلَّقَت عاليًا، وهنا بدأ اضطرابي، قلتُ أحدِّث نفسي: نعم إنَّها هي، هي التي بحثتُ عنها بدءًا مِن قصيدتي الأولى، هي التي قلتُ لنفسي عنها قبل النضوج هناك فتاةٌ ما تنتظرني، وهي قدَري، فإمَّا أن يكون لقائي بها قصيدة خاتمتُها عشق محقَّق، أو قصيدة تنزف طالما النفَس يدخل إلى رئتي ويحترق.

ثمَّ كان اللقاء التالي عند باب بناية عمادة شؤون الطلبة، صادفتُها تخرج مِن البوابة الرئيسة، والجميل في ذلك اللقاء أنَّها لَم تخشَ مني ولَم تتحرَّج، تضاءَلَتِ المسافة بيننا، وقفَت خطواتها كإيقاع موسيقي يتوقَّف، كاد وجهي يلامس وجهها، تحَّدَثَت عيوننا معًا لغةً مفرداتها مِن العقل والقلب معًا.

كانت تلبسُ قميصًا مِن الشيفون كحليًّا مزركشًا بسنابل منتشرة لونها مشمشي، وسروالًا مِن القطن أبيض، وفي قدميها حذاء رياضي ماركة نايكي أبيض، له زنار دقيق مشمشي اللون.

قالت وهي تغضُّ بصرها حرجًا:

- لقد صدَّقتُك، قد تحقَّقَ الحلم، فمهمَّتك صعبة، استعِدَّ للمعركة أيُّها الشاعر.

ثم تابعَت سيرها، التفَتُّ لجسمها النحيل يبتعد، وشعرها المسترسل تعبث بهِ هبَّة نسيم خجولة مفاجِئة.

بعد كلامها الجميل بتُّ أتحيَّن الفرص لألتقي بها، غشيتُ طاولتها في الكافتيريا مجدَّدًا كمغامرٍ جريء، انحنيتُ حتى لامس شعرها الناعم جبيني وقلتُ:

- أيُّ حلمٍ تحقق؟

أجابَت بثقة عمياء وارتباك شفَّاف:

- رأيتُ حلمًا في أحد الأيام، كان صوتًا في الحلم، كلُّ صُوَره داكنة، قال الصوت لي: سوف تعشقين رجلًا بسبب صوته، وعلامته البارزة تفاحة آدم الطافرة عند حنجرته.

كم كانت جريئة! كانت جفونها رقيقة، وعيناها ناعستَين قويَّتَين.

تابعَت والثقةُ تكاد تتلاشى:

- والآن اذهب قبل أن يلحظك أحد، وتصير في خطر.

وقفتُ مكاني متجمِّدًا، ولَم أكترِث متجاهلًا أمرها، هزَّت رأسها بامتعاض، وتبدَّلَتِ السكينة في عينيها إلى خوف، تتفقَّد ما حولنا، وقالت يندفع الخوف في صوتها:

- اذهب إن كنتَ حقًّا تحبُّني وتخشى عليَّ.

ذهبتُ بعد أن أيقنتُ خوفها، ربما كانت كافتيريا الجامعة مكانًا غير مناسب للحديث.